بسم الله الرحمن الرحيم

أيامي في مصر

الحلقة "الأولى"

"بذور الفكرة"

٤-٩-١٤٤٢

د. عبدالعزيز بن أحمد البداح

كانت إقامتي في مصر تجربةً ثريّةً وجميلة، قابلتُ فيها علماء، وزرتُ شخصيات، واتّخذتُ أصحابا، واقتنيتُ كتبا، وتعلّمتُ دروسا، وواجهتُ صعابا، واطّلعتُ على أحوالٍ ومعارف، ووقفتُ على مذاهبَ واتجاهاتٍ فكرية، وتعرّفتُ عن قربٍ على مجتمعٍ عربيٍ مسلمٍ بمخالطة كثيرٍ من شرائحه وطبقاته، ومرّت بي مواقف لم تخل من طرفةٍ ودعابة .

ولا أُخفي عليك أيها القارئ أنّي في إقامتي كنت أسْبر الأحوال، وأتأمّل الوقائع، وأدرس الأحداث، وأحلّل المظاهر الدينية والعلمية والاجتماعية والاقتصادية، وهذا جزءٌ من شخصيتي التي جعلت كثيراً من كتاباتي دراساتٍ تحليليةٍ وصفيةٍ تقوم على التتبع والاستقراء لهذه الظاهرة أو تلك.

وهنا لن أسرد الوقائع وأحكي الأحداث فحسب لكنّي سأكتب بما حفّ ذلك من مشاعر وخواطر، في ألمٍ وأملْ، وضيقٍ وسعة، وكدرٍ وصفاء، وتشاؤمٍ وتفاؤل، عارضاً تجربتي، مستلهماً الدروس والعبر، مُبدياً رأيي فيما أعرضه من وقائع وأحداث، لأن سرد القصص وإيراد الحكايات خاليةً من المضامين والمعاني ليس فيها إلا إمتاع القارئ وتزجية الوقت وطرد السآمة، وهذه لها روّادها وصنّاعها، ولست أميل إلى ذلك .

على أني استغفر الله تعالى عما يُفهم في ثنايا هذه الرحلة من تزكيةٍ للنفس أو اعتدادٍ بالذات، أو غرورٍ وتعالٍ، لأن مدحَ النفس معيب، والثناءَ عليها جهل، والاعتدادَ بها سوء أدبٍ مع الله، والمؤمن يعلم أنه منطوٍ على الضعف والتقصير، والإضاعة

والتفريط، وهو في كلّ يومٍ يتلو "سيد الاستغفار" مرتين " أبوء لك بنعمتك عليّ وأبوء بذنبي".

وفي كتابتي هذه لن ألتزم بحدودٍ زمانيةٍ ومكانيةً للكتابة، لأن الأحداث تتداخل، والوقائع تترابط، وحتى لا يبقى القلم مكبلاً والأنامل مقيّدةً فسأرحل بالقارئ بين القاهرة والرياض، ومكة والمدينة، والمنامة والكويت، وقطر ودبي، وسأعود إلى سنوات صباي ثم أتقدّم إلى مرحلة كهولتي، وسأتجول في مكتباتٍ وأسواق، ومساجدَ ومعارض، وكنائسَ ومطارات، وأفكارٍ وشيوخ، وأصِفُ الوفاء واللؤم، والجبن والشجاعة، والكرم والبخل، والنجاح والفشل، والصداقة والود، والفراق واللقاء، واستشهد بالقرآن والسنة، والنظم والشعر، والحكمة وأقوال العرب، وأجلّي معاني النفحات الإلهية والعطايا الربانية.

وهكذا هي كتب الذكريات وصحائف المذكّرات، لأنها حديث النفس الذي تفجّر من الصدر كتفجّر الماء من بين صخور الزمن الصماء لتتكلم بعد سكوت وتتحدث بعد كتمان، فهي تئن وتتوجّع، وتتأوه وتتفجّع، وتفرح وتَطْرَب، وتضحك وتنتشي، والنفس تتفاعل عند تذكر الأحداث واسترجاع الماضي واستدعاء الوقائع أكثر من تفاعلها في زمن معايشتها لتلك الأحداث والوقائع.

في هذه الكتابة سأدع قلمي يكتب بدموع مقلتي وعلى صوت نبضات قلبي في بحر متلاطم من المشاعر.. سأبحر في ثنايا الأحداث وكأنّ الزمن عاد بي لأعيش تلك الأحداث وأرْويها كأنّي أراها مع تفاعلاتها وتأثيراتها على العقل والنفس والوجدان، ولذا سأقول لقلمي اكْتبْ، ولذهني تذكّرْ، ولوجداني تفاعلْ، ولمشاعري تفجّري .

واخترت أن يكون عنوان هذه الذكريات:" أيامي في مصر" لأن تلك المرحلة من أكثر مراحل حياتي ثراءً وتجربة على أني سأحكي ما قبلها وما بعدها، لأن حياة المرء سلسلةٌ مترابطة الحلقات، وسُبْحةٌ منتظمة الحبّات .

وكتب الرحلات ودواوين الذكريات إحدى روافد تشكيل الشخصية، وبناء النفس، وتنمية الفكر، ونماء العقل، وصناعة الوعي، واستلهام التجربة .

وكما قيل:

ألمْ تر أنّ العقلَ زينٌ لأهلهِ

ولكنّ تمامَ العقلِ طولُ التجاربِ

وقد أشار عليّ صديق عزيز في فترة دراستي في "مصر" أن أدوّن يوميّاتي أو الأحداث التي تمرّ بها حتى أكتب عنها فيما بعد، وذكّرني بالكتابة بعد انتهاء دراستي، لكني لم أكن مبادراً إلى ذلك، لأن الكتابة كالشِعْرِ، لها زمن تنبعث فيه، تجد نفسك مندفعاً للكتابة، فحِبْرُكَ يسيل، وأفكارك تتدافع، وذهنك يتّقد، وأناملك تتسابق مع ذاكرتك في الكتابة والتدوين.

وهذا النوع من الكتابة من أصعب أنواعها وأشقها على النّفس، لأن الكتابة تنطلق من القلب، ويتفاعل معها الوجدان، ويَجْهد فيها العقل، فأنت لا تنسخ من الكتب، ولا تنقل من الصحائف فحسب، ولكنك تصوّر الواقع، وترصد الأحداث، وتحلل الوقائع، وتجمع الشواهد، وتضم النظير إلى نظيره، وفي كلّ ذلك مسكونٌ بِهَمٍّ، مدفوعٌ بمبدأ، تعيشُ حُرقةً وألماً.

ومعاناة الكاتب الوجدانية في هذا اللون من التأليف كمعاناة الشاعر، فالكاتب يتقلب على فراشه يجفو النوم عينيه يستدعي الأفكار، ويبحث عن المعاني، ويتسوّل الصياغة.

وغالب كتبي من هذا اللون من التأليف، وكان أشدّها عليّ في الكتابة: " التغريب" و "الانحراف" و "الابتعاث".

وأذكر أن وارد الكتابة عن "الابتعاث" طرأ على ذهني وتمكّن مني وتملكنّي في شهر رمضان من سنة"١٤٣٠هـ" حتى كأن شيئا جثم على صدري لا يبارحني، فكنت لا أنام إلا قليلا حتى أنجزته، فزال ما وجدته من همّ الكتابة وأرق التصنيف.

ولي رأيٌ أيضاً أن التأني والتمهل في الكتابة والتأليف أصوب وأقرب حتى يستوي الإنسان في فكره وعقله وعمره، على أن يكون لديه ما ينفع ويفيد أصلا، وربما يكون في رحلتي وتجربتي وأنا أتقدّم إلى العقد السادس من عمري ما يثري عقل القارئ ويزيد حصيلته .

والاستعجال في الكتابة والتأليف أو التصدّر للفتوى والتدريس غير مأمون العاقبة، لأن التأنّي محمود، ومن استعجل ندم.

ومن فضل الله تعالى عليّ أنّي لم أعْجل في الكتابة والتأليف، وصدر أوّل كتاب لي : "المدارس الأجنبية في الخليج" بعدما جاوزت أربعين عاما، وأعرض ما أكتبه قبل طباعته على من أثق بعلمه ونصحه.

وكانت لي تجربةً في المرحلة المتوسطة نسيت باعثها والغرضَ منها إذ قمت بتلخيص كتابين، أذكر أنّ أحدهما : فقه العبادات لفيصل مولوي، وكتبته بالآلة الكاتبة، لكني فقدته فيما بعد .

بدأت رحلتي في مصر بالرغبة في الدراسات العليا، الذي بدأ يتنامى فكرةً منذ الدراسة الجامعية في "كلية أصول الدين" سنة "١٤١٤" وما بعدها في مدينة الرياض، وكان ملموساً بمروري المتكرر على قاعات الدراسات العليا في الكلية متطلعاً أن أكون أحد روّادها في المستقبل.

وقويت الرغبة بتأثير الصديقِ العزيزِ الدكتور" خميّس بن سعد الغامدي" الذي كان يقول عند لقائي ومصافحتي في تلك المرحلة: مرحبا دكتور!

وتحوّلت الرغبة إلى تصميمٍ وإصرارٍ عندما قال لي أحدهم ساخراً ومحتقرا " نهايتك الثانوية العامة". فكانت ضربةً مؤلمةً موجعة.. لكنها لم تقتلني وإنما قوّتني ودفعتني نحو رغبتي وطموحي، فبقي صدى هذه الجملة يتردد في أذني لسنوات ولا يزال، ولهذا قيل: الضربة التي لا تقتلك تقويّك.

ومن عجيب الأمر أنّ بعض الناس يُحسن إليك من حيث أراد أن يسيء، بل إنّ هذه الكلمة كانت دافعاً للحصول على درجاتٍ علميةٍ متعددةٍ في فنونٍ متنوعة .

والعجب أن أهل السوء تموت أشخاصهم، وتُنسى أسماؤهم، لكن تبقى سيئاتهم تروى، ومعايبهم تُحكى، فاللهم عافيتك من مقالة السوء .

وخلال سنوات دراستي العليا التي قاربت خمس عشرة سنة لم تتوقف كلمات التخذيل تنهال على مسامعي، ومواقف التثبيط تعترضني لِتَحْطِم المعنوية، وتغتال الطموح، وتُسقط الهمة، وسأشير إلى ما أتذكره منها خلال سَرْد رحلتي .

ولا أظن أن أحداً يسلم في حياته من سهام الإحباط التي تُصوّب عليه من قريبٍ أو بعيدٍ أو عدوٍ أو صديق، يبعث عليها جلافة الطبع، أو شائبة الحسد، أو غَشامة المرء، تصيب كثيراً في مقْتل فتُقعدهم عما يطمحون إليه، ويسلم منها آخرون فتزيدهم صلابةً ومضيّا نحو أهدافهم .

وفي كلّ مرّة تنال منّي سهام التخذيل والتثبيط أقول لنفسي: هذا من البلاء، واستجمع قواي التي كادت تسقط للنهوض والمضي ومتابعة المسير، ويشعر المرء بتوكّله على الله بإعانةٍ ربانيةٍ تسري إلى قلبه فتُثبّته وتطمئنه، وإلى جوارحه فيجد نشاطاً وقوّةً تحمله إلى حيث يريد، وتوفيقاً وتسديداً إلى ما فيه نفعه، والإعانة الربانيّة رأيتها باديةً مثلا في إعدادي ستّ رسائل علمية تقوم على الجمع والوصف، والنقد والتحليل، وتتطلب جهداً ومالا، وهذا معنى الحديث النبوي:" من سلك طريقاً يلتمس فيه علماً سهّل الله له به طريقاً إلى الجنة". وتأمّل قوله: "سهّل"!! وما ظنّك بالرب القدير إذا سهّلّ الكَرْبَ العسير؟

وفي إزاء ذلك يعرض للإنسان من يُشجعه ويُحفزّه، ويدفعه ويعينه لتحقيق هدفه وتجاوز الصعوبات التي تعترضه، وهذا من أسباب النجاح، فلا ينساهم الإنسان من

دعائه وثنائه، وفي مراحل حياتي العلمية المختلفة سخّر الله لي من أعانني وساعدني وسأذكر هؤلاء عند الحديث عن كل مرحلة .

وهذا من عجيب تأثير الكلمة فإنها تعمل في النفس والوجدان عمل السحر حباً وبغضا، وذماً ومدحا، وإحياءً لنفوسٍ وقتلاً لأخرى، ودفعاً إلى النجاح أو جرّا إلى الفشل، والعجب في الكلمة أنها تبقى محفورةً في القلب لا يطويها النسيان، ولا يمسحها مرور الأيام، وما أجمل أن يبقى للإنسان في القلوب والأماكن ذكرى عطرةٌ ومواقفُ حسنة. وهل متعة الدنيا، ولذّة الحياة، وطعم السعادة، ومجلبة السرور إلا في الإحسان إلى الخلق؟!

وكما قيل :

قد مات قومٌ وما ماتت مكارمُهم

وعاش قومٌ وهم في الناسِ أمواتُ

بل رأيت سِيَرِ الناجحين حولي فرأيت فيها صبراً وتجلّدا رغم طول الرحلة، ووعورة الطريق، وقلّة المعين، فقويت العزيمة، وعَلَت الهمة، وتنامى الإصرار، وكنت أتتبعها وأذْكرها لمن أستحثُّ همتهم لإكمال دراستهم .

وفي هذا لا زلت أتذكر لما كنت صغيراً وزرنا أحد الأقرباء وكان بعض الناس يضعون لوحةً صغيرةً على بيوتهم فيها اسم صاحب البيت، وصدّر اسمه بحرف "د" وتوقّفت عندها متأملاً فيها، خاصة في تلك المرحلة التي يقلّ فيها من يحمل شهادة الدكتوراه.

ويمرّ بذاكرتي برنامجٌ يُبثّ من إذاعة القرآن الكريم بالمملكة العربية السعودية عنوانه: "أطروحةٌ على الهواء" يَنْقُلُ مناقشة رسائل الماجستير والدكتوراه في الجامعات السعودية، ليَنْكُتَ في قلبي هذه الرغبة ويزيد منها .

ونمّى رغبتي في الدراسة التوجّه العلمي المبكر في القراءة والتردد على الدروس واقتناء الكتاب، ولا أنسى أن أوّل كتب اشتريتها: " الخلق الكامل" لمحمد جاد المولى، و كتاب "صون المنطق والكلام عن علم المنطق والكلام" للسيوطي، في المرحلة المتوسطة سنة "١٤٠٦" من مكتبة في سوق "حراج ابن قاسم" في وسط مدينة الرياض.

وفي تلك المرحلة كنت أشتري مجلة "التوحيد" الصادرة عن جماعة أنصار السنة المحمدية بمصر.

ولفت نظري في تلك المرحلة في مكتبةٍ تجاريةٍ في وسط مدينة الرياض كتاب: "رحلتي من الشك إلى اليقين" لمصطفى محمود، وأعجبني اسم الكتاب، ولا يزال راسخاً في ذهني .

ووقع في يدي في المرحلة المتوسطة كتاب "زاد المعاد" لابن القيم ولا يزال عندي، قدّمته المدرسة لأختي في مرحلتها الثانوية جائزةً في مسابقة أقامتها !!

وترددت على المكتبة الملحقة بمسجد الحي كثيرا، لكني لا أذكر من تفاصيل ترددي عليها شيئاً إلا في إشارتها لتعلّقي بالكتاب وحبّي للقراءة.

وكانت بعض المساجد في تلك الفترة مُلحقٌ بها مكتبات تضمّ أمّهات الكتب، وتفتح أبوابها لروادّها بصورةٍ منتظمة.

ولعلّ ما دفعني للقراءة وحبّ الكتاب أنّ والدي من طلاب العلم ومحبي القراءة، ولا زالت صورته ماثلةً أمامي جالساً على سجادةٍ في سطح منزلنا وقد استند على الجدار ورفع الكتاب وغطّى وجهه به قارئاً مستغرقاً في القراءة، ومعه قلمٌ يضع تحت الجمل المهمة خطوطاً وعلامات، ولا زلت بتأثير التقليد والمحاكاة أصنع طريقته في القراءة والإمساك بالكتاب والتخطيط فيه.

وكانت لوالدي مكتبةٌ صغيرةٌ تضمّ كتاب المغني لابن قدامة، وتفسير ابن كثير، والترغيب والترهيب للمنذري وغيرها، وكنت أتسلّل إليها وأقرأ فيها، وأتوقف عن القراءة في كتاب "المغني" عندما تمر بي مصطلحات فقهية لا أفهم معناها.

وسأذكر لك في حلقةٍ قادمةٍ جميل خصال والدي وتأثيرها عليّ في حياتي عموما، وفي حياتي العلمية خصوصا.

وتفرض عليّ المروءة بنسبة الفضل إلى أهله، رعايةً للعهد، وحفظاً للمعروف، ووفاءً لذويه بأن أذكر تأثير فضيلة الشيخ "منصور بن حسن آل عبدالله" عليّ في تلك الفترة إذ تعاهدني براعيته وتوجيهه، وتحفيزه وتشجيعه، وبذل لي من ماله ووقته وجهده ما دفعني للعلم وحلقاته ودواوينه حتى سبقت عمري في القراءة والاطلاع، والكتابة والتأليف، والخطابة والإلقاء.

ولعلك إذا أردت أن تعرف كِبَرَ النفوس وصفاءها، وعلوّها ونقاءها، أني أشدتُّ به وذكرتُ فضله بعد انقطاعٍ عنه لسنوات، فردّ عليّ أنه لا يذكر أنّ له معروفاً وفضلا!!

وكان من تأثير الشيخ "منصور" عليّ أن انتظمتْ قراءتي وسلكت طريق العلم بحضور درسٍ للشيخ "عبدالله بن جبرين" في "لمعة الاعتقاد" في مسجد "البرغش" في حي السويدي، وكان من القرّاء الدكتور "عبدالعزيز بن محمد السدحان" وواظبت على الحضور فيما بعد، وكانت قراءتي قبلها مشتتةً لا ألوي على شيء، ومن طريف الأمر وعجيبه أنّي قرأت في تلك المرحلة في كتاب "الشامل في أصول الدين"

للجويني، لكني نسيت كيف حصلت عليه أو وصل إليّ، وهذا الكتاب لا ينسجم مع الاعتقاد السلفي، ومن نعمة الله على الناشئ أن يُسخّر له الناصحَ له والصادقَ معه حتى يسلم من العَثار في طريقه.

وأتذكّر كيف أن المرء يُضيع وقته وجهده فيما لا فائدة فيه، ففي تلك الفترة أقبلت على قراءة روايات "أجاثا كريستي" وهي روايات بوليسية مشوّقة!! نعم هي مشوّقةٌ ومسلّيةٌ لمن لا همّ عنده ولا هدف لديه.

وهذا الذي صنعه الشيخ "منصور" معي هو ما اصطلحتُ على تسميته بصناعة الانسان والاستثمار فيه، وفي الكتاب والسنة ما يشير إلى هذا المعنى، ولدي الرغبة في الكتابة عن أصوله وقواعده، وملامحه وروافده.

ولما عزمت على مواصلة دراستي العليا اصطدمت رغبتي بتلك المساحة الضيّقة لبرامج الدراسات العليا في المملكة العربية السعودية في تلك المرحلة، والتي اتسعت فيما بعد، لذا فكّرت بالدراسة في مصر .

وعَرَضت عقبةٌ أخرى في الحاجة إلى التفرغ للدراسة، فلم أتردد في الاستقالة من عملي حينها، على أنه قرارٌ جريءٌ لا يدري الإنسان ما تبعاته، لأني خيّرت نفسي بين تحقيق الطموح والوصول إلى الغاية وصناعة النجاح وبين المُضيّ في حياتي مُتخليّا عن رغبتي وطموحي.

وعلوّ الهمّة، والتطلع إلى المعالي، طريق التميز، وسبيل تجاوز الأقران، والسّبْق في ميادين الحياة.

وكما قيل :

إذا ما عَلا المرءُ رامَ العُلا

ويقنعُ بالدونِ من كانَ دُونا

وفي ظنّي أن المرء في حياته بين مسارين بتحقيق طموحه والوصول إلى رغبته فيذوق طعم النجاح، ويشعر بتحقيق الذات، وبين التخلّي عن ذلك والانصراف عنه فلا يخلو من مرارةٍ وضيق، على أنّ المؤمن في كلا الحالتين بين شكرٍ وصبر، وليس ذلك إلا للمؤمن.

وعلى كلٍ فإنّ الإنسان لا يَعْجل في اتخاذ قراراته من غير دَرْسٍ ونظرٍ، وتفكيرٍ في العواقب، ومع ذلك لا بدّ أن لطف الله بعبده يحيط به من كل جانبٍ، ويسوق له الخيورَ ويصرف عنه الشرور .

ورحلتي إلى مصر كانت تحتاج إلى صبرٍ وتجلّد، وعزيمةٍ وإصرار، مع ضعف الإنسان وتسلط الشيطان وظهور العقبات على المستوى الأسْري والدراسي، ولعله لا يغيب عن الذاكرة كلمةً قالها لي الصديق العزيز الدكتور "خالد بن عبدالله الشافي" كلما شَكوْت له عقبة " خلّك بعير" يقصد في الصبر والتحمّل، وكانت كلمته ترد عليّ في نوائبَ موجعةٍ ومصائبَ مؤلمةٍ مرّت في حياتي، فسلاح المؤمن الصبر، وذخيرته التجلّد، وإلا ضعف وانقطع به السير.

والصبر ليس حلوى يَسْتطعم المرء طعمها، ويلتذ بحلاوتها، بل هو مُرّ المذاق، شديد المرار، فأين ثمرته إذن؟ في التهوين من المصيبة، والتخفيف من النائبة، وتثبيت القلب، وتسكين الفؤاد، والأجر والثواب، والرّفعة والنجاح، والعاقبة الحميدة في الدنيا والآخرة.

والمرء لجهله وحَجْب الغيب عنه لا يدري مكان رزقه وزمانه، فقد يطلب الرزق في مكان، ولا يجده إلا في مكان آخر، ويستعجل الرزق فلا يأتيه إلا في زمنه، وهو في كل هذا محتاجٌ إلى الصبر .

وكما قيل:

اصْبِرْ قَليلاً فبعدَ العسرِ تيسيرُ

وكلُّ أمْرٍ له وقتٌ وتدبيرُ

وقيل أيضا:

وعاقبةُ الصبرِ محمودةٌ

ولكنّ أخو الخَرْقِ مستعجلُ

والنجاح ليس مرتبطاً بالذكاء والتفوق العقلي، بل مرتبطٌ بعمل المرء وإصراره، وتجلّده وصبره .

ويبقي أنه لا بد من استحضار أنه ليس للإنسان إلا ما كُتب له، وأن الخِيرة فيما اختاره الله له، وأن إرادة الله تَغْلِب، وقدره يَسْبِق، ولو ابتغى المرء نفقاً في الأرض أو سُلّماً في السماء فلن ينال إلا المقدور، وكثيرٌ هم الذين تقدّموا للدراسات العليا في مصر في تلك المرحلة وقَصُر بهم القدر فلم يحصّلوا شيئا .

وكما قيل:

قَدْ أردْنا، فأبى الله لنا

وأرادَ اللهُ شيئاً فمضى

وقد يطلب الإنسان ما فيه مساءته، "وعسى أن تحبوا شيئا وهو شر لكم". ويكره ما فيه مصلحته، "وعسى أن تكرهوا وهو شرٌ لكم".

وكما قيل:

تجري الأمورُ على حكمِ القضاء، وفي

طيّ الحوادث محبوب ومكروهُ

فربما سرّني ما بتُّ أحذرهُ

وربّما ساءني ما بتُّ أرجوهُ

على أن عطاء الله ورزقه ليس محصوراً في أمنيةٍ تتوق النفس إليها، أو حلمٍ يراود الإنسان، ومن يعش بهذا التصوّر يَجْهَد ويتعب، ويجزع وينصب، ويخاف ويحزن، ويقعد ويتوانى، لأن عطاء الله ورزقه يشمل العلم والكتاب، والحكمة والرشد، والطاعة والعمل الصالح، والمروءة وحسن الخلق، والذرية والزوجة، والصاحب الوفيّ والخليل النديّ، والقبول ومحبة الخلق، والثناء الجميل والذكر الحسن.

وأسباب النجاح ليست محصورةً في الأسباب المادية والوسائل الحسية، بل لا بد من الأسباب المعنوية من تصحيح النية، وتجريد القصد، والتعلق بالله ودعائه، والقيام بعبادته، والإحسان إلى خلقه.

وكما قيل :

إِذا لَم يكن عَونٌ من اللهِ لِلفَتى

فَأَكثَرُ ما يجني عليه اِجتهادهُ

ولعلّ مالا يُنسى في هذا المقام الذخيرة والعدّة التي لها تأثير في استجلاب عناية الله، واستمطار رحمته، ونيل كرامته، وحصول لطفه في برّ الوالدين والتوفيق لذلك، فإن المرء ببره بأمّه وأبيه يَفْتَحُ له باباً إلى الجنة، وسبيلاً إلى التوفيق، وطريقاً إلى قلوب الخلق ومحبّتهم.

ورأيتُ العجب في أُناسٍ تُفتحُ لهم الأبواب، وتُمهّد لهم السبل، وتُيسّر لهم الأمور، وتلين لهم الصعاب، وتحلّ بين أيديهم العُقد، ولا أعزو ذلك إلا أنّ الله جلّلّهم برضوانه فوفقّهم للبر بأمهاتهم وآبائهم.

وفي ثنايا هذه الرحلة سأكتب في حلقة مستقلّة عن والدتي وتأثيرها الكبير وأثرها العميق في حياتي .

والدراسات العليا ليست هي النجاح كله، وقد يُفتح للإنسان في أبوابٍ أخرى يتميّز فيها ويفوقَ أقرانه .

والدراسات العليا أيضا لا تضيف للمرء كلّ شيء، بل الإضافة الحقيقية في الريادة العلمية في التأليف والتدريس، والنفع والإفادة، والكمالات الخُلقية من السمت والهَدْى، والعقل والحكمة، والمروءة والرشد .

ومن تأثيرات ذلك التشجيع والتثبيط معا أنّي صرت أشجّع النابهين من الطلاب على مواصلة دراستهم العليا وأحفّزهم على ذلك، وبعضهم كان متأخراً دراسيا، ورأيتُ بعضهم حاز الدكتوراه بعد ذلك .

ولما استقلت من عملي رأيت أن التوجه للدراسة خيارٌ لا رجوع فيه مهما كانت الصعاب والعقبات، وكان ذلك بدايةً في الإجراءات الإدارية التي تطلبها إدارة الابتعاث في وزارة التعليم العالي، وما تطلبه جامعة الأزهر من أوراق وتصديقات تحتاج إلى جهدٍ ووقتٍ لإنجازها، على أن تيسير الله ومعونته رأيتُه في تسخير من يساعدك ويتعاطف معك، ولا أنسى أن الموظف في إدارة الابتعاث حينها كان دمثَ الخلق، حسنَ التعامل، في غاية التلطف والودّ .

وكان أوّل اتصال لي بجامعة الأزهر مع مدير الدراسات العليا والبحوث بالجامعة لمعرفة ما يتطلبه التقديم من أوراق ومستندات، وجرت بيني وبينه مواقف سأحكيها لك فيما بعد.

وظننت في استعدادي للرحلة إلى مصر أني لا بدّ أن أرتدي الزي الافرنجي فاشتريته لكنّي لم ألبسه ولا يزال على حاله، لأنّي عرفت أن المجتمع هناك يتقبّل أي لباس، بل كثيرٌ في المجتمع المصري من يلبس "الثوب" ويسمونه "الجلاّبية" .

وكلّمت فضيلة الشيخ الوالد الدكتور "ناصر بن عبدالكريم العقل" متحفزاً ومهتماً لدراستي في مجتمعٍ غير مجتمعي، فهوّن الأمر وأن العيش في القاهرة كالعيش في

"منفوحة" وهو حيٌ في الرياض يقطنه المصريون بكثافة، ويحتفظون فيه بمظاهر حياتهم .

والشيخ ناصر حفظه الله وأطال عمره على طاعته استفدت منه كثيرا في اتزان الرؤية، واعتدال الموقف، والتزام الواقعية، والعدل والانصاف، والتأني والتمهل، مع سماتٍ شخصيةٍ كالتواضع والبساطة، واللطف واللين .

وتصوّرت حينها أن مشايخ الأزهر يلتزمون اللباس التقليدي، وهو طربوشٌ أحمر وعمامةٌ بيضاء تُشدّ عليه، والقفطان وهو ثوبٌ أسودٌ واسعٌ مفتوحٌ من الأمام يسمونه "الكاكولا"، وكان تصوّري غير دقيق.

وفي كثيرٍ من الأحيان نُفجأ أن تصوّراتنا عن الأشخاص أو الأماكن أو المجتمعات تكون مغلوطةً أو منقوصة، وإذا وقف الأمر عند حدود التصوّر فلا بأس، وإن كان يدل على غلطٍ في معايير التقويم والنقد، لكن الغلط الأكبر أن نبني على مجرّد التصوّرات أحكاماً أو نتخذ قرارات، ولعلك رأيت أو سترى أن الكبار في عقولهم ومداركهم وتجاربهم لا يبنون أحكاماً أو يتخذون قراراتٍ بناءً على تصوّرٍ مجرد فضلاً عن أن يبنوا ذلك على تصوّرات الآخرين ورؤاهم .

هكذا كانت بداية رحلتي ونواة مهمتي بما أتذكره من تفاصيلها، وما أحاط بها من بواعث وتأثيرات .

*****